الباب الرابع

العهد الأيوبي وحرب تحرير القدس

الباب الرابع

العهد الأيوبي وحرب تحرير القدس

أصاب العالم الإسلامي إبّان الحروب الصليبية التمزق الأمر الذي سهّل مهمة الصليبيين ضد المسلمين. بدأت نواة الوحدة في بلاد الشام، ولم يستكن المسلمون على الجبهتين الشرقية والغربية ضد الصليبيين فجمع طغتكين (أمير دمشق) وإيلغازي (أمير حلب) عام 514 هـ وفق 1119 م جيوشهما، وظهر عماد الدين زنكي الذي أخذ على عاتقه لم شمل الأمة في الشرق الإسلامي.فأخذ الصليبيون يهاجمون الجبهتين الشرقية والغربية لإضعافهما.وقد ربى هذا القائد جيلا جهاديا وهما نور الدين وصلاح الدين.

أيقظ نور الدين روح الجهاد لدى المسلمين فعمل على توحيد الأمة لمحاربة الصليبيين وتحرير القدس.

أدرك نور الدين أن تحرير القدس لا يمر إلا عبر دمشق حيث احتلها في عام 550هـ – 1154م فتحقق حلم وحدة العالم الإسلامي في الجبهة الشرقية واضعا نصب عينيه تحرير القدس فأمر بصنع منبر المسجد الأقصى الذي حرقه الصهاينة عام 1968م.

في عام 563 هـ أرسل نور الدين مرة أخرى قائده شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي إلى مصر لاحتلالها، إلاّ أن شاور استنجد بالصليبيين[1] واستنجد شيركوه بأهل الإسكندرية فناصروه، واتفق الطرفان على أن يخلي شيركوه الإسكندرية وينسحب الصليبيون نهائيا من مصر. ففي سنة564هـ توفي القائد شيركوه وتولى صلاح الدين مكانه وفي سنة 567 هـ أقيمت الخطبة العباسية بمصر، وقطعت خطبة العاضد لدين الله الفاطمي، وانتهى حكم العلويين في مصر."[1]

(1) مجير الدين الحنبلي، مصدر سابق، ص 314.

وبهذا فقد تحققت وحدة المسلمين ولم يبق للصليبيين الذين عاثوا فسادا تسعين عاما في هذه الديار إلا فرصة الإنقضاض عليهم من قبل صلاح الدين فكانت نهايتهم.

بدأ الضعف يدب في أوصال هذه المملكة وعلى الجانب الآخر كان المسلمون يعدّون العدة ويجمعون صفوفهم ويوحدون أقاليمهم ويعبئون جيوشهم من أجل استعادة الفردوس المفقود إلى حظيرة الإسلام.

القدس في عهد صلاح الدين

عمل نور الدين ووالده على توحيد القوى الإسلامية في بلاد ما وراء النهر والشام من أجل تحرير بيت المقدس من الصليبيين، واصل آل هذا البيت الكريم جهودهم حيث أخذوا يمدون أعمالهم إلى مصر الفاطمية حتى يوسعوا الوحدة الإسلامية، وبذلك تتحقق لهذه الأمة القوة والرفعة لتعود لأمجادها.

كان لنور الدين الرؤيا الثاقبة في اختيار الرجال ليقوموا بهذه المهام الجسام، ويوطدوا أركان الوحدة بين المشرق والمغرب الإسلامي، وقد كان لصلاح الدين الحظوة في هذه الاختيارات الموفقة، لقد سار إلى مصر ثلاث مرات، وكانت المرة الأخيرة التي استقر بها في مصر ليبدأ مشواره الجديد، واضعاً قدميه على أول الطريق. لقد كان من أبرز القادة في العصور الوسطى، فكان شجاعاً مدرباً، خاض الحروب العديدة، وأثبت جرأة وبطولة نادرة في الانتصارات التي حققها ضد الصليبيين وخاض أشرس المعارك، فكانت معركة حطين هي الحاسمة على مشارف القدس، والتي آلت إلى تحريرها من الصليبيين الغزاة.

أهم الأحداث التي جابهت صلاح الدين في بداية طريقه

أولاً: إنهاء الخلافة الفاطمية العلوية في مصر:

ثانياً: القضاء على الثورات الداخلية:

1 . ثورة كنز الدولة في الصعيد.

2. مؤامرة جوهر السوداني ضد صلاح الدين.

ثالثاً: تأمين الحدود الخارجية:

1. فتح بلاد اليمن وتأمين حدوده منها:

2. تأمين الحدود على الجبهة الغربية في بلاد المغرب.

رابعاً: صد الهجمات الصليبية الخارجية في كل من:

1. دحر الصليبين الغازين من الغرب لدمياط سنة 565هـ

2. صد اسطول ملك صقلية سنة 569هـ

خامسا: الجفاء بين نور الدين وصلاح الدين

صلاح الدين الأيوبي يأخذ زمام المبادرة:

بعد وفاة نور الدين زنكي، كان الصراع محتدماً على الملك بين جميع الأمراء، وقد أسند الحكم إلى ولده إسماعيل، الذي كان في سن الصبا، وكان من أبرز الذين يرغبون في توحيد الأمة، القائد المظفر صلاح الدين الذي عمل بجد واجتهاد على إعادة الصفوف ورصها، فحشد جيشاً ضخماً ضد الصليبيين، بينما أخذت الجيوش القادمة من سائر الإمبراطورية تجتمع في مايو 1187 م، توجه صلاح الدين على الطريق المؤدي إلى مكة ليتولى حراسة قافلة الحجاج، التي كان بين أفرادها أخته وابنها عائدين من المدينة المقدسة، حتى يطمئن إلى أن رينالد لن يحاول مرة أخرى القيام بغارات قطّاع الطرق، وفي تلك الأثناء تدفقت العساكر من حلب والموصل وماردين حتى أضحى أضخم جيش قيادته لصلاح الدين.

على طريق بيت المقدس

في يوم الجمعة 26 يونيو 1187 م تولى صلاح الدين قيادة قلب الجيش، فاجتاز بجيشه نهر الأردن عند سن النبرة ثم احتلوا طبريا.لم يتوفر الماء لجيش الصليبيين على امتداد الطريق، فلم يلبث الرجال والخيول أن اشتدت معاناتها للظمأ، فأبطأت الخطأ في سيرها، ودأب رماة المسلمين على مهاجمة مقدمة الجيش المسيحي ومؤخرته معا، وأمطروا

قلب الجيش بالسهام وأسرعوا إلى الابتعاد، أخذ ريمون يصيح قائلا(يا ألله) انتهت الحرب لقد هلكنا وزالت المملكة.

أمّا صلاح الدين الذي عسكر بجنده في وادي معشب، وأخذ بعض فرسان الفرنجة يلتمسون الماء ففشلوا، وكيما يزيد المسلمين في عناء المسيحيين ومتاعبهم أشعلوا النار في الأعشاب والشجيرات الجافة التي تغطي التل، فغشي المعسكر المسيحي الدخان الساخن وفي جنح الظلام حرّك صلاح الدين رجاله، فيما كان يبزغ فجر يوم السبت 4 يوليو 1187 م حتى تم تطويق جيشه الملك (جاي) ويقول بعض المؤرخين أنه ليس بوسع قط أن يفلت من الشبكة المنصوبة.[1]

يوم حطين 4 يوليو سنة 1187م

وهذا الكلام إلى المؤرخ ستيفن رنسمان الصليبي" وما جرى في هذه الوقعة من أحداث " لم يلبث المسلمون أن بدأوا الهجوم عقب طلوع النهار ولم يخطر ببال الرجالة المسيحيين إلا فكرة واحدة تدور حول الماء، إذ حاولت جماعة كبيرة منهم أن تشق لها طريقاً على المنحدر المؤدي إلى بحيرة طبريا، التي تقع مياهها تحت التل، غير أنه جرى ردهم إلى التل وقد غشاهم من كل جانب لهيب الحرائق وطوقهم المسلمون من كل جانب فلقي عدد كبير مصرعهم على الفور، بينما وقع آخرون في الأسر، وعمل على المواصلة في توحيد الأمة، ومحاربة الفرنجة، حاملا رسالة السلف الصالح.

صلاح الدين الأيوبي يأخذ زمام المبادرة

بعد وفاة نور الدين زنكي، كان الصراع محتدماً على الملك بين جميع الأمراء الذين عاشوا في عصره، وقد أسند الحكم إلى ولده إسماعيل، الذي كان في سن الصبا، ولم يكن لديه تلك المقدرة أو الحنكة السياسية، أو العسكرية، التي يحابه بها من حوله من الطامعين في الحكم، وكان من أبرز الذين يرغبون في توحيد الأمة، القائد المظفر صلاح

(1) مصدر سبق ذكره ص 739.

الدين الذي عمل بجد واجتهاد على إعادة الصفوف ورصها، فحشد جيشاً ضخماً عبر الحدود ضد الصليبيين، بينما أخذت الجيوش القادمة من سائر الإمبراطورية تجتمع في مايو 1187 م، توجه صلاح الدين على الطريق المؤدي إلى مكة ليتولى حراسة قافلة الحجاج، التي كان بين أفرادها أخته وابنها عائدين من المدينة المقدسة، حتى يطمئن إلى أن رينالد لن يحاول مرة أخرى القيام بغارات قطّاع الطرق، وفي تلك الأثناء تدفقت العساكر من حلب والموصل وماردين حتى أضحى أضخم جيش قيادته لصلاح الدين.

صلاح الدين على مشارف بيت المقدس

كانت خطة صلاح الدين من جميع هذه الحروب التي خاضها على الجبهتين الداخلية والخارجية، وذلك الحلم الذي كان يؤرقه، ألا وهو إعادة فتح بيت المقدس، وتحريرها من ربقة الصليبيين الغزاة، وإعادتها إلى كنف المسلمين، فيحرر الأراضي المسلمة، ويعيدها بيضاء طاهرة خالية من رجس الصليبيين، لقد قام صلاح الدين باتخاذ جميع الاحتياطات والتدابير اللازمة من أجل تحرير بيت المقدس، وذلك إنهاء جميع المشاكل الداخلية والخارجية وتأمين الحدود كما قام بتوحيد العالم الإسلامي وصهره بالمذهب السني وقطع طرق إمداد الصليبيين برا وبحرا فأقام جنده في البحر يقطعون الطريق على الإفرنج، كلما رأوا له فيه مركباً، غنموه وشانيا أخذوه، فحين وصل الأسطول وخلا سره من تلك الناحية، سار من عسقلان إلى بيت المقدس[1]

لقد كانت هناك العديد من الدوافع التي تجول في خاطر هذا القائد الكبير، من أجل تحرير بيت المقدس، وأن جميع ما خاضه من الحروب ما هو إلا خطوات على طريق تحرير بيت المقدس.ومهما يكن، فإن صلاح الدين قد أعد العدة وهيأ الجند لخوض المعركة الفاصلة، ووضع نصب عينية تحرير بيت المقدس من ربقة الغزاة.

---

(1) الشيباني، محمد بن محمد بن الواحد 0(ابن الأثير)، **الكامل** في التاريخ،ط2،دار الكتب العلمية،1995، ص154.

تحرير القدس ليلة الإسراء والمعراج الجمعة 27 رجب 583 هـ/1187 م

"تتجلى عبقرية صلاح الدين العسكرية في خطته العسكرية التي اتبعها في جهاده ضد الصليبيين لتحرير بيت المقدس، فقد قامت خطته على تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة من بلاد الشام والعراق ومصر، ثم تحديد الزمان والمكان لمعركة حطين، وإنزال الهزيمة الساحقة بالصليبيين، وليضمن الاستقرار التام للقدس، بمنع وصول المساعدات البرية والبحرية بقيادة الحاجب لؤلؤ المحافظة على هذه المواني، واستنفر العالم الإسلامي للجهاد من أجل تخليص بيت المقدس، ثم استدعى القوات الإسلامية التابعة له، فتجمعت لديه، وأحضر أدوات الحصار الكافية لاقتحام الأسوار، من منجنيقات وعرادات ونفاطات وقطاعات. واقتتل الفريقان أشد قتال، كل واحد منهما يرى ذلك ديناً وحتماً وواجباً. فلما أشتد القتال نقب المسلمون أسوار المدينة، وأتفق رأي الصليبيين على طلب الأمان وتسليم المدينة إلى صلاح الدين، فأرسلوا له وفداً يعرض عليه استلام المدينة فأجابهم، قائلا: لا افعل بكم إلا كما فعلتم بأهله، حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها، فلما رجعوا خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه. [1] بدأت المعركة الحاسمة، التي كان من نتائجها اقتحام قوات صلاح الدين أسوار المدينة والدخول إليها، لكنه لم يفعل بهم كما فعلوا بالمسلمين عندما احتلوها، وكان فتحه لهذه المدينة يوم الجمعة الموافق 27رجب 583 / 12تشرين أول 1187م. [2]"

فماذا فعل الصليبيون بالأمس عندما احتلوا القدس، أما ما كان من اسرى الصليبيين عند المسلمين البالغ عددهم خمسة آلاف، فقد أمر بجمعهم وكسائهم والإحسان

---

(1) ابن الأثير،مصدر سابق، ج 10 ص 155

(2) بيضون، الدكتور جميل، الدكتور أحمد عودات، الدكتور شحادة الناطور، **تاريخ المشرق الإسلامي من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري** .،اربد: دار الأمل للنشر والتوزيع، 1989م، ص 172.

إليهم وأطلقهم، وعادوا إلى ذويهم بعد معاناة وحرمان. [1] وقد غدا تحرير بيت المقدس على ألسنة الأدباء والكتاب والشعراء والمؤرخين.

الأعمال التي باشر بها صلاح الدين في القدس

التسامح الديني والعفو الشامل عن الضعفاء والمساكين من النصارى الذين استسلموا للمسلمين.

أ - حدد الفدية عشرة دنانير شامية عن كل رجل وخمسة دنانير عن كل امرأة ودينار عن كل طفل.

ب- السماح للمحاربين بمغادرة البلاد مع عائلاتهم وأطفالهم خلال أربعين يوما إلى صور أو طرابلس.

ج- قيامه بتوزيع الصدقات على الفقراء والمحتاجين واليتامى والأرامل من الصليبيين.

د – السماح للملكة إيزابلا بالمغادرة واللحاق بأهلها.

هـ- السماح لرجال الصحة بمواصلة أعمالهم في إسعاف الجرحى والمرضى.

صلاح الدين يتوجه شخصيا لإصلاح المسجد الأقصى ومسجد الصخرة المشرفة

توجه حالا إلى المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة، ليصلح ما علق بهما من أدران المحتلين، وشوائب الصليبيين وما تبدل منهما من مسالك المسلمين، فأزال ما بهما من آثار نصرانية، فما زال النقوش والصلبان وغطاها بالرخام وغسلها بماء الورد، وكان الصليبيون قد حولوها إلى كنيسة وأقاموا بها مذبحاً وقد ملأوها بالصور والتماثيل فبخرت وفرشت وأمر بعمارة المسجد الأقصى وتخشيبة ورصه بالفسيفساء والرخام. [2]

---

(1) الشافعي، كمال الدين المقدسي، **مخطوط إتحاف الإخصاب بفضل المسجد الأقصى** رقم 407 رقم التصوير ف 182 ص 79.

(2) عارف العارف، مصدر سابق، ص 175.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان، واجتمع الناس لصلاة الجمعة ونصبت الأعلام على المنبر، وتلكم الناس فيمن يخطب وأذن المؤذن الجمعة، فرسّم السلطان وهو بقبة الصخرة للقاضي محي الدين بن زكي الدين علي القرشي أن يخطب، وهي أول جمعة صليت بالمسجد الأقصى الشريف بعد الفتح.

كان من أبرز ما أعده المجاهد الكبير نورالدين زنكي الذي عزم على استعادة القدس لحاضرة الإسلام، منبر للمسجد الأقصى المبارك ليثبته فيه، وكان ذلك قبل الفتح ألصلاحي بعشرين عاماً تقريباً.

المؤسسات الخيرية التي أنشأها صلاح الدين في القدس

أمر (رحمه الله) بإزالة الكنس والتماثيل من داخل الصخرة وإعادتها مسجداً ورتب لها إماماً وأوقف عليها أراضين ودورا، وحمل إليها المصاحف.ثم شرع في إعمار باحات المسجد الأقصى المبارك، وأمر بترخيم محرابه، وقام (رحمه الله) بتأسيس المعالم الرئيسية، كالمستشفيات (البيمارستان) التي هي من ضروريات الحياة لأبناء الأمة، وهذا دليل على أن الرعاية الصحية، كما قام بالاهتمام ببناء الربط، وجعلها دوراً للعلم وللمتصوفة، ومركزاً للمجاهدين. لم يغب عن باله الاهتمام بدور العلم والمدارس، فقد أسس المدرسة الصلاحية، واهتم بالإعمار والبناء، سيما تحصين المدينة المقدسة بالسور الذي يعتبر بحق من معالم هذه المدينة كما أتى بعدد من القبائل العربية وأقطعها لهم وقام بترتيب الأعياد والمراسيم المعروفة في بلادنا منها واهتم بالإصلاحات الإدارية الفكرية وغيرها.

وُلِيَ الأمير على القدس سباروخ التركي الذي عرف بحسن سيرته وديانته وعهد في مشيخة الحرم الشريف والنظر عليه والتصرف في أوقافه إلى موسى بن غانم الأنصاري وفوض أبا عبد الله محمد بن أبي بكر بن خضر القرشي وكالة بيت المال وفوضه ببيع الأملاك المختصة ببيت المال بالقدس، فاشترى (كنيسة صندحنه)وهي المدرسة الصلاحية

فيما بعد، والجهات التي أوقفها عليها، كما ولى بهاء الدين أبو الموصلي المولد والمنشأ، قضاء بيت المقدس والعساكر وتدريس المدرسة الصلاحية.[1]

الإنجازات العمرانية والعلمية والمعالم الحضارية التي أورثها صلاح الدين في بيت المقدس:

1. البيمارستان[2] المستشفى الصلاحي.
2. مقبرة ماميلا.
3. الخانقاه الصلاحية.
4. جامع الجبل (جبل الزيتون)
5. المدرسة الصلاحية
6. قبة يوسف
7. المدرسة الميمونية.
8. سور المدينة
9. مقبرة باب الساهرة.
10. سقاية المسجد وعمارة مكان الطهارة

(1) مصطفى مراد الدباغ ، مصدر سابق، ج 9 ص 204

(2) كلمة بيمارستان مأخوذة من بيمار الفارسية وتعني مريض وستان بمعنى مكان وتدل على المستشفى .

تغيير سكان القدس بعد تحريرها على يدي صلاح الدين

أورد الباحث (مصطفى الحياري) في بحثه عن القدس تحت الحكم الصليبي قائلا " تغير سكان القدس بعد سنة 1187م مرة أخرى. لكن التغير في هذه المرة لم يكن جذريا وتاما كما جرى سنة 1099م. ففي الفترة بين 4تموز 1187م وحتى أواخر أيلول سنة 1187م، عندما حاصر صلاح الدين القدس، أصبحت المدينة مركز التجمع للإفرنج جميعا من أنحاء فلسطين كافة، وقد لجأ هؤلاء إلى المدينة طلبا لحماية أسوارها، وبلغ ازدحام المدينة إلى الغاية فحتى الكنائس والطرقات امتلأت بالناس، ولم يكن المرء يستطيع المشي في شوارعها إلا بصعوبة. ففي أقل من اسبوعين من الأربعين يوما التي نصت عليها اتفاقية التسليم غادر جميع السكان اللاتين في القدس المدينة، فيما عدا أولئك الذين عجزوا عن دفع الفدية والذين استرقوا تبعا لذلك، وأصبحت أحياؤهم وأسواقهم ودكاكينهم ومساكنهم الأخرى خالية ، ولم يبق في المدينة سوى المواطنين الأصليين في حارة النصارى، وبعض رجال الدين الروم وجماعات نصرانية شرقية أخرى.

دفع هؤلاء النصارى المحليون الذين شملتهم اتفاقية التسليم الفدية، وطلبوا من صلاح الدين السماح لهم بالبقاء في بيوتهم، وأبدى هؤلاء استعدادهم لدفع الجزية، ومتابعة حياتهم العادية في المدينة. "[1]لكل ما ذكر، وكما أسلفت أيضا في موضع سابق" يوم بيوم" فشتان بين الحالتين اللتين عاشتهما المدينة المقدسة وبين الموقفين، الموقف الأول، ألا وهو الاجتياح الإفرنجي لهذه المدينة وما خلف من ويلات ودمار ودماء غاصت فيها الخيل إلى الركب في ساحات المسجد الأقصى المبارك وبين موقف التسامح الذي تربى عليه تلاميذ محمد (ﷺ) من عفو عند المقدرة.

(1) مصطفى الحياري، مصدر سابق، ص، 192

صلاح الدين محرر القدس محرر الأمة

بدأ حياته بجهاد واجتهاد، ونمت شخصيته عن قائد فذ منذ نعومة أظفاره، فتم اختياره لمرافقه عمه أسد الدين شيركوه للوقوف أمام الصليبيين في مصر، ويكفيه فخراً، أنه استطاع أن يغير النظام السياسي العلوي في مصر ويحيله إلى نظام سني يتبع للخلافة الإسلامية في بغداد، ليشكل بذلك وحدة إسلامية، واستطاع أن يقف أمام أقوى قوة عاتية غازية لبلاد المسلمين، ويحقق أروع الانتصارات عليهم، وكان على رأس هذه الانتصارات معركة حطين، التي فتحت له الطريق لتحرير بيت المقدس، واستطاع أن يوحد بلاد مصر والشام ليكون بذلك وحدة إقليمية عربية إسلامية أسست نواة لوحدة إسلامية كبرى، أصبحت تعرف باسم الدولة الأيوبية على يدي هذا القائد الكبير. ويكفيه فخراً أنه كان يعلم ويؤدب ويربي، وهو صاحب المقولة المشهورة، حينما مرّ على خيمة ذات ليلية ولم يسمع منها قراءة القرآن، قال (من هنا تأتي الهزيمة) فهو حريص على التدريب والتعليم والتربية الإسلامية.

لم تكن الإنجازات التي رسخّها في القدس هي الوحيدة في هذه الديار ابل أنه اعتنى بالمدن الفلسطينية الأخر ولا زالت آثار صلاح الدين ماثلة للعيان في مدينة الخليل، فقام بالإصلاحاتاللازمة في المسجد الإبراهيمي الشريف، بعد تحرير المدينة من الصليبيين، إضافة إلى تثبيت العديد من العائلات، التي ما زالت تعيش حتى وقتنا الحاضر في مدن فلسطين، سواء كان ذلك في القدس أو في الخليل، وأن لهذه العائلات شرف السدانه والخدمة في مسجدي الأقصى ومسجد أبينا إبراهيم الخليل(عليه السلام).

سيرة صلاح الدين تستنهض همة المسلمين

استعرضتا حال المسلمين قبل الغزو الصليبي لديارهم، وعرفنا ما هي الأسباب التي أدت إلى انهيار هذه الأمة، وعشنا الفصول السابقة ظاهرة تحرّق وألم على وضع العالم الإسلامي والقدس، وكيف عمل قادة المسلمين وتطلعاتهم وإنجازاتهم بشأن القدس،

وكيف أنهم أعدوا العدة وهيئوا الجيوش ودربوا الجند وعبأوا هذه الأمة بطاقاتها الهائلة، ووجهوها الوجهة السليمة على مدى عشرات السنين وتم اختيار القادة المخلصين الذين تتناسب رسالتهم مع قدراتهم، كل هذه العوامل متحدة كانت البدايات لوحدة هذه الأمة وإعادة مركزها القيادي بين شعوب الأرض،

إن أمتنا بحاجة إلى رجل كصلاح الدين ونور الدين زنكي وغيرهم، ممن عملوا ليل نهار على توحيد هذه الأمة والسير بها إلى طريق النصر. فعلاً خرج صلاح الدين في العصور الوسطى وكانت النتيجة المعروفة، فأمةٌ يخرج منها هذا البطل ومن معه من رجالات دحرت أشرس حملات صليبية عن بلاد المسلمين، أليست قادرة بل جديرة بأن يخرج منها أحدٌ كصلاح الدين لأن عناصر وحدتها موجودة وإن صلاح الدين لم يكن الوحيد الذي غيّر وجه التاريخ، بل كان معه جيل كامل من أفذاذ الرجال المخلصين.

جعل صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله) هدفه الأسمى تحرير بيت المقدس من ربقة الصليبيين الغزاة الذين كانوا قد اتخذوا منها مقرا لمملكتهم اللاتينية، فعندما حررها (رحمه الله)، فهو رجل نشأ في أحضان الرجولة والبطولة والفتوحات الميسرة، واصل العمل بالجهاد لتحرير بقية البلاد، وقد عيّن ثلث دخل نابلس وأعمالها لتصرف على مصالح بيت المقدس، وتشييد سورها وتعمير خنادقها.[1]

عمل صلاح الدين على مواصلة جهاده إلى ما هو أبعد من ذلك، باتجاه الشمال والشرق حتى بلاد أذربيجان ... بيد أن قضاء الله عاجله، والمنية وافته قبل أن يحقق نهاية طموحه ومسيرة جهاده.

فلما قدم الحجيج يوم الاثنين حادي عشر صفر خرج السلطان لتلقيهم، وكان معه ابن أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن، فأكرمه والتزمه، فعاد إلى القلعة ودخلها من باب الجديد، فكان ذلك آخر ما ركب في هذه الدنيا، ثم اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر، فقصده الأطباء، ثم اشتد به الحال ليلة السابع والعشرين من صفر،

---

(1) المصدر نفسه ص 587.

واستدعى الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة، ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة، إذا جد به الأمر، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو في الغمرات، وكان له من العمر سبع وخمسين سنة لأنه ولد بتكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

لم يترك في خزانته من الذهب سوى جرم واحد، أي دينار واحد، صوريا، وستة وثلاثين درهماً، وقال غيره وسبعة وأربعين درهما، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعةً ولا بستاناً ولا شيئاً من أنواع الأملاك، هذا وله من الأولاد سبعة عشر ولداً وابنةً واحدةً ... "[1] فخلد ذكره التاريخ.

القدس لب الصراع الصليبي الصهيوني

استطاع صلاح الدين (رحمه الله) أن يحرر بيت المقدس من الصليبين، الذي جثم عليها مدة ثمانية وثمانين عاما، فكان القتال حول القدس مريراً، وكل فريق يحارب عن عقيدة، بيد أن النصر كان للمؤمنين حقا.

لم يكن خروج الصليبيين من القدس بالأمر اليسير على نفوس الصليبيين الحاقدين، الذين دفعوا ثمناً باهظاً في سبيل السيطرة عليها، وعلى أرجاء الشرق الإسلامي، وكيف كان خروجهم منها مذلاً ومهاناً، فبقيت غصة في قلوب الصليبيين يحيكون المؤامرات والدسائس علّهم تتاح لهم الفرصة ولو إلى حين

فعندما شعر صلاح الدين بدنو أجله وقرب منيته استدعى حاشيته وأحضروا ورثته أمامه وقام بتقسيم ملكه الشاسع عليهم،

قال رادولف تشرشل "لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء، إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود، إن القدس

(1) أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، مصدر سابق، ج13 ص 2.

قد خرجت من أيدي المسلمين، وقد أصدر الكنيست الإسرائيلي ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية ولن تعود إلى المسلمين في أية مفاوضات مقبلة بين المسلمين واليهود.[1]

الإرث الكبير

كانت نهاية هذا البطل الكبير مشرفة وخالدة على مر الزمان وذلك بتحقيق الأهداف والطموحات التي كانت تصبو لها هذه الأمة، بعدما ذاقت من الويلات الكثير، ، فحياة هذا البطل مليئة بالبطولات، فعندما شعر صلاح الدين بدنو أجله وقرب منيته استدعى حاشيته وأحضروا ورثته أمامه وقام بتقسيم ملكه الشاسع عليهم، فكان نصيب كل منهم على النحو التالي:

أولا: تكون ولاية الشام بما فيها فلسطين تحت إمرة ابنه الأفضل

ثانيا: مصر، لابنه عثمان الملقب بالملك العزيز.

ثالثا: ولاية حلب لابنه الظاهر.

أمّا أخوته، فكان نصيبهم على النحو التالي:

أولا: حماه والمعرة والرها وحران من نصيب أخيه تقي الدين.

ثانيا: ولايات بلاد الشام فكان تقسيمها على النحو التالي:

أ. الكرك والشوبك وقسم من الجزيرة العربية وما بين النهرين لأخيه الملك العادل.

ب. بعلبك للملك الأمجد بن توران شاه.

ج. حمص بيد ناصر الدين بن عمه شيركوه الذي كان يصطحبه في الحروب في مصر.

د. اليمن لأخيه طغتكين.

كان هذا الإرث عظيما، وكان في أيدي كثيرةٍ، أفرزت فيما بعد الصراعات والخلافات وحب الدنيا واعتلاء المناصب، فقد بدأت الصراع يدب في نفوس هؤلاء

---

(1) رادولف تشرشل، مصدر سابق، ص 129.

الورثة، فبدل أن تتوحد هذه القوى ضد الطامع الصليبي أخذت الخلافات تجد لها مكانا في واقعهم الجديد.

أما الصليبيون فقد كانوا يعدون العدة لاستعادة القدس إليهم وسلبها من أيدي المسلمين وطردهم منها، علاوة على تدفق أعداد كبيرة من أوروبا لرفد هذا التوجه الصليبي الحاقد.!

القدس بعد صلاح الدين

القدس في عهد الأفضل والعزيز ابني صلاح الدين من المعلوم أن بيت المقدس، كانت من نصيب الأفضل الذي أدرك أن الصليبيين يعدون العدة لإعادة احتلال بيت المقدس من المسلمين، ولقد ربطنا حال بيت المقدس بين الاثنين لكونهما قد اشتركا في حكمها، وقد تنازل عنها الأفضل لأخيه العزيز في مصر لإمكانية حمايتها من الصليبيين.

وجد الأفضل من واجبه أن يحصن هذه المدينة بالأسوار، ويشحنها بالعتاد والرجال، وأن يقوم بالإصلاحات اللازمة داخل المدينة، وكان من أهم الإصلاحات التي قام بها الأفضل ما يلي:

إنشاء المدرسة الأفضلية الكائنة في حارة المغاربة والتي سميت باسمه، وهي وقف الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي بن الملك صلاح الدين، تغمده الله برحمته، أوقفها على فقهاء المالكية بالقدس الشريف، ووقف أيضاً حارة المغاربة على طائفة المغاربة

كان الأفضل في دمشق، وقد غيّر رأيه ونقض عهده، وخالف ما تم الاتفاق عليه بينه وبين أخيه، الذي هو أقدر منه على ما أوكل إليه فنكث عما قام به من تنازل فيه عن القدس لأخيه، فأوفد إليه كتاباً آخر يعلمه فيه بإلغاء ما جاء في مكتوبة الذي تنازل فيه عن القدس لأخيه، ويعلن له فيه تمسكه بالقدس.

قد أثر هذا النكوص على نفسية أخيه العزيز مما دعاه إلى تجريد حملة عسكريةللإستيلاء على فلسطين عنوة، حيث تدخل في فض هذا النزاع بينهما الحكام الأيوبيون وأنهي الخلاف قبل الإشتباك،

مما دفع العزيز لإعادة تجريد حملة عسكرية أخرى، على أخيه الأفضل حيث استولى على بيت المقدس، وآلت إلى ملكه، فأصبح ملكاً على القطرين الشامي والمصري في آن واحد. وبعد أن استتب الأمر للملك العزيز على هذه الديار، قام بزيارة إلى القدس الشريف عام 592هـ وفق 1195 م، كان من نتائج هذه الزيارة هو إقالة حاكمها أبا الهيجاء السمين وعين الأمير شمس الدين سنقر بدلا منه.

القدس في عهد الملك العزيز

الأوقاف على القدس: أوقف قرية دير أبي ثور وأراضي القمرة الشرقية والغربية وأراضي خربة سميرة على الشيخ أحمد الثوري، ثم على أولاده وذريته وفي حال انقطاع النسل على بر لا ينقطع.

القدس وفشل مؤامرة الأمراء

كانت ديار مصر والشام قد آلت إلى الملك العزيز، بيد أنه انتقل إلى رحمته تعالى بتاريخ 27 محرم سنة 595 ه وفق 1198 م.

كان وريثه في الحكم ولده الملك المنصور محمداً، الذي كان صغيراً لم يبلغ التاسعة من العمر، حيث رتّب له (أتابكا) وصياً ألا وهو الأمير بهاء الدين قرقوش، مما حدا بمجموعة من الأمراء وعلى رأسهم فخر الدين جهاركس أحد أمراء مصر بأن يحيك مؤامرة على الملك الشاب، وأحضر معه سبعمائة فارس من مصر، فتحالف مع عدد من الأمراء واشترك في هذه المؤامرة على قلب نظام أمير القدس الأمير صارم الدين صالح.

كاتب هؤلاء المتآمرون الملك العادل في دمشق، بيد أنهم لم يفلحوا في هذه المؤامرة التي تحطمت على صخرة تصدي الملك الأفضل لهم.

نشب للتصدي إلى هذه المؤامرة الملك الأفضل بن صلاح الدين، الذي استولى على ملكه أخوه العزيز، حيث أنه لم يرق له أن يستولي هؤلاء المتآمرون على ملك بن أخيه الملك الشاب المنصور محمدا، فألقي القبض على بعضهم وفرّ البعض الآخر، ولم يكتف بالاستيلاء على القدس بل سار إلى مصر واستطاع إعادة السيطرة والهيمنه للملك الأفضل، فقد تحول الوضع في بلاد مصر والشام على النحو التالي:

1) مصر ويحكمها الملك الشاب لكن بوصاية ابن عمه الأفضل.
2) دمشق ويحكمها الملك العادل.

كانت القدس خلال هذه الفترة تابعة لمصر، ولم تكن من أعمال دمشق، على الرغم من أنها من بلاد الشام، لكن أهل هذه المدينة المقدسة، كانوا يميلون إلى الملك العادل في دمشق، ويكنون له الولاء والاحترام، وكان الوضع فيها مترديا بحيث أصبح الغلاء يعم المدينة.

كما أنه ترك فجوة من الكراهية بينه وبين الطامعين في الحكم وعلى رأسهم عمه الملك العادل، الذي تغلب عليه واستطاع بعد ذلك دخول مصر وأصبح هو الوصي على المنصور بدل الأفضل، وأخيرا تحقق طوح الملك العادل بحيث أصبح ملكا على كل من الشام ومصر، وبهذا فقد أعيد توحيد المملكة الأيوبية في عهد الملك العادل.

التآمر الصليبي على القدس في عهد الملك العادل

يعتبر الملك العادل من دهاة الأيوبيين لما يتمتع به من حنكة وقدرة، فقد استطاع وعلى مدى العديد من السنوات أن يترك شرخا بين أبناء أخيه مما جعلهم يتطاحنون في حروب عدة، وتمكن من إضعافهم وأخيرا آل الملك إليه، وأصبح ملكا على كل من مصر والشام، وبهذا فقد اتسعت مملكته وزادت مسؤولياته وقوي جانبه، أما الصليبيون فلم يكونوا بمنأى في التفكير بالعودة إلى القدس.

استطاع الملك العادل أن يستغل العداء الواقع بين أمراء الصليبيين من جهة وبين الملك الأسمى المسمى "أمارليك" لبيت المقدس الذي كان يحلم بإعادة احتلال القدس، لكن الملك العادل استطاع أن يستثمر هذا العداء الواقع بينه وبين بقية الأمراء الصليبيين وأن يعقد معه هدنه لمدة ست سنوات، ففي هذه المدة استغل الملك العادل هذه الفرصة استغلالاً جيداً، بحيث أنه استطاع أن يبني جيشاً قوياً ويعد حصوناً منيعة في القدس ويدعم الممالك التابعة له لأنه كان يخشى نقض الصليبيين للمعاهدة يوما ما، فيكون بذلك قد أمن الجبهة الداخلية، كما أنه نال البلاد في هذه الفترة من الحكم شيء من الاستقرار.

مصر خط الدفاع الأول عن القدس

على الطرف الآخر، فإن للصليبيين دور هام في مناجزة المسلمين، فقد عقد البابا مجمعاً كنسيا عام 613 هـ وفق 1215 م دعا فيه إلى تأليف حملة ضخة من الفرنجة، ومهاجمة مصر، وبذلك تتحقق للصليبيين الأهداف الإستراتيجية التالية، من أجل الدخول إلى القدس، لأن مصر تعتبر بحق خط الدفاع الأول عن فلسطين، فبإضعاف مصر تكون القدس لقمة سائغة للقوات الصليبية فيسهل بذلك السيطرة على الشرق الإسلامي وتدين البلاد لهم مرة ثانية.

بهذا تكون خطة الصليبيين الإستراتيجية من احتلالهم لمصر، السيطرة على هذا المورد البشري الضخم والمالي الكبير، الذي يرفد الجبهة الإسلامية، علاوة على تواجدهم بالقرب من بيت المقدس، فيكون الطريق مفتوحاً إليهم في هذه القاعدة، وبالفعل تم تجنيد هذه الحملة الصليبية الضخمة وتوجهت إلى دمياط، وعندما بلغ الملك العادل احتلال الصليبيين لدمياط تأوه تأوها عميقاً وأسف أسفاً شديداً وحزن حزناً عظيماً، وأدرك أن الصليبيين قد غدروا به ونقضوا العهود والمواثيق المبرمة بينهم، والتي ما كان يظن أنهم ينقضونها لشدة العهود والمواثيق التي كانت بينهم.

أدرك الملك العادل أنه لا بد من تقسيم ملكه بين ورثته قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، حيث قام بتقسيم ملكه على النحو التالي:

1- مصر من نصيب ولده الكامل ناصر الدين.

2- الشرق تحت إمرة الأشر ف مظفر الدين موسى.

3- من العريش حتى حمص للملك المعظم شرف الدين عيسى، بما فيها القدس.

أمّا الملك العادل فقد احتفظ لنفسه بالسيادة العليا على جميع هؤلاء الملوك، بحيث كان مرجعية لهم جميعاً وتحت إدارته المباشرة، حيث أن الصليبيين قد استولوا على جزء من مصر وتمركزوا في دمياط فقد وافت المنية الملك العادل وانتقل إلى رحمته تعالى.

القدس في عهد الملك العادل

لم تكن القدس بمنأى عن جهد يبذله كل خليفة أو ملك أو قائد أو أمير مسلم حل هذه الديار، فهي كنز الملوك، وبها مآثر الخلفاء، وتراث القادة والأمراء، فما من إنسان حكم في هذه الديار، إلاّ وآثر أن يترك له أثراً، أو أن يخلد له بصمة، أو يبني بنيانا، أو يقدم مأثرة في بيت المقدس، لأن القدس سجل التاريخ ورمز الحضارات المتعاقبة وكنز الأمم، فكيف وأن الملك العادل، لم تفته هذه الفطنة، فلا بد له من يترك له بصمات تخلد ذكره في البلد المقدس، ومن أهم مآثره في القدس ما يلي:

سقاية المسجد الأقصى المبارك ومطهرته، عام 599 هـ وفق 1202 م

القدس في عهد الملك الأفضل عيسى

لقد ترك الملك المعظم شرف الدين عيسى آثاراً جمة في القدس، يمكن ذكرها كما هو مبين:

الأروقة السبعة الواقعة أمام المسجد الأقصى المبارك من الجهة الشمالية علاوة على الأبواب الخشبية من جهة الشمال للمسجد الأقصى المبارك

على الرغم من حب هذا الملك للقدس، واهتمامه بها، وجلب الأسرى إليها مكبلين منكسي الأعلام، حينما انتصر على الفرنجة في سواحل فلسطين، [1] كما وأنه قد شيد في القدس أبنية كثيرة وترك آثاراً عديدة، إلا أن الحظ لم يسعفه في النهاية، فتغير الحال وعندما علم باستعداد قوات الفرنجة احتلال القدس، أمر بهدم أسوارها وأمر بإخراج الأسلحة منها وقد ساء هذا العمل أهل القدس، سنة ست عشرة وستمائة أخرب الملك المعظم عيسى صاحب دمشق القدس، لأنه كان توجه إلى أخيه الملك الكامل صاحب الترجمة في نوبة دمياط، في المرة الأولى، فبلغه أن الفرنجة على عزم أخذ القدس فاتفق الأمراء على خرابه، على الرغم من حب هذا الملك للقدس، واهتمامه بها، وجلب الأسرى إليها مكبلين منكسي الأعلام، حينما انتصر على الفرنجة في سواحل فلسطين، [2] كما وأنه قد شيد في القدس أبنية كثيرة وترك آثاراً عديدة، إلا أن الحظ لم يسعفه في النهاية، فتغير الحال وعندما علم باستعداد قوات الفرنجة احتلال القدس، أمر بهدم أسوارها وأمر بإخراج الأسلحة منها وقد ساء هذا العمل أهل القدس.

القدس في عهد الملك الكامل بن الملك العادل

من المعلوم أن القدس كانت من نصيب الملك المعظم شرف الدين عيسى، أما الملك الكامل فإن له شأن آخر في هذا المجال، فقد استطاع أن يوّحد جيشه ويقوي تسليحه وأن يقف في وجه الصليبيين، مما مكنه من الثبات أمامهم حيث طلبوا منه وقف القتال بين الجانبين، وأعلنت الهدنة على أن يستجيب للشروط التالية فاستجاب لهم وهي:

1. التنازل عن بيت المقدس للصليبيين، وهذا شرط لا بد من التنويه إليه حيث أن القدس لم تكن ضمن أملاك الملك الكامل بل كانت من أعمال الملك الأفضل عيسى شقيق الملك الكامل.
2. تسليمه الصليب الذي استولى عليه صلاح الدين للصليبيين.

---

(1) المقريزي، مصدر سابق، ج6 ص 223.

(2) المقريزي، مصدر سابق، ج6 ص 223.

3. إعادة جميع الأسرى.

كل هذه الشروط مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط، بيد أن الصليبيين عادوا فنكثوا هذه الهدنة واحتدم الصراع المسلح، وفي هذه الفترة قويت شوكة الملك الكامل، وتحسن وضع جيشه مما أدى إلى انسحاب الصليبيين من المعركة خاسرين، فقويت بذلك شوكة الملك الكامل بوحدة الأمة، وبهذا فإن الصليبيين لم يحرزوا الاستيلاء على القدس، ولم تتحقق آمالهم التي بنوها لإعادة القدس إلى ملكهم وانتزاعها من المسلمين، فخسر الصليبيون معركة دمياط، وخرجوا منها، كما أنه لم تتحقق أهدافهم بالوصول إلى القدس.

كان الملك الكامل يحكم مصر والملك المعظم عيسى يحكم بلاد الشام وبعد وفاته انتقل الملك إلى ولده الملك الناصر صلاح الدين داود حيث كان صبيا، كانت أطماع الملك الكامل تتوجه صوب ملك هذا الشاب فتوجه بجيش من مصر، واستطاع أن يستولي على ملكه عام 625 هـ.

حدثت الهدنة المشؤمة التي مرّ ذكرها بين الإمبراطور فردريك والملك الكامل لمدة عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعين يوماً وتحالف الملكان على هذه المعاهدة التي كان من نتيجتها أن أصدر هذا الملك أمراً إلى أهل القدس بمغادرة المدينة وتسليمها إلى الفرنجة فاشتد البكاء والصراخ والعويل فغادر قسم منهم فتوجه إلى مصر، والآخر إلى الشام والباقي إلى الكرك.

حضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان فعز عليه ذلك وأمر بأخذ ما كان معهم وزجرهم وقال لهم: امضوا إلى حيث شئتم فأنكر المسلمون عليه هذا العمل وراحوا يشنفونه في كل الأقطار.

استأذن الإمبراطور بالدخول إلى القدس، فأذن له ورافقه القاضي شمس الدين قاضي نابلس وطاف معه في المزارات فأعجب الإمبراطور بالأقصى والصخرة.

هذه الأخبار عن موقف الملك الكامل وكيفية تعامله مع الفرنجة وكيفية تفريطه بالقدس ! هذا موقف لا بد من الوقوف عنده هنيهة، لعل المرء يساءل نفسه عن هذا السلوك الذي أقترفه الملك الكامل في أمرين هامين ألا وهما:

أولا: تنازله عن القدس لصالح الفرنجة التي لم تكن تحت إمرته.

ثانيا: دخول الإمبراطور الإفرنجي إلى القدس وتعطيل بعض الشعائر الدينية لأجله مما أثار استهجانه واستغرابه كمنع رفع الأذان.

بقيت نفس الملك الكامل تواقة إلى احتلال دمشق من ابن أخيه، وأخيراً تمكن من احتلالها حيث أعطاه الكرك والسلط والبلقاء ونابلس وأعمال القدس وبيت جبرين، وأصبح الكامل ملكا على مصر والشام والشوبك وطريه وغزه وعسقلان والرملة ولد والساحل الذي كان تحت سيطرة المسلمين.

كان الصراع محتدما بين هؤلاء الأمراء، فالحرب لم تتوقف إلا هنيه بينهم، والصراع على الملك كان غايتهم، وبعد وفاة الملك الكامل، انتقل الملك إلى ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتجددت الحرب بينه وبين ابن عمه، واستولى على معظم ملكه، بيد أن الملك الناصر عاد واسترد ما فقد منه، وتمكن من أسر إبن عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل.

كانت القدس في هذه الفترة بأيدي الصليبيين، فهاجمها الملك الناصر واستولى عليها من الفرنجة.

صراع ملوك الأيوبيين

استعان الملك الصالح نجم الدين أيوب الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر، ووعدهم ببلاد الشام، وكان على رأسهم الأمير حسام الدين بركه خان، فاقتحموا القدس، وقتلوا من فيها من النصارى، وكانت الوقعة الكبرى بين الطرفين أهل الشام ومعهم الفرنجة، واستولى على القدس وكانت تحت إمرة الملك الصالح نجم الدين أيوب.

في عام 644 هـ زار الملك نجم الدين أيوب القدس، وكانت له مآثر جمة في هذه الزيارة منها:

1. تصدق بألفي دينار على فقراء بيت المقدس.
2. أمر بإصلاح سور المدينة المقدسة الذي كان طوله ستة آلاف ذراع.

بيد أن الأمير حسام الدين بركه خان قتل، ونقلت جثته للقدس ودفن هو وولده في المكتبة الخالدية، ونقشت على قبورهم.

هناك ملاحظ هامه يجب ألا نتجاوزها في سياق الحديث، عن مجمل الصراع الذي وقع بين الملك الكامل والصليبيين، حيث أنه استطاع أن ينتصر عليهم وأن يحرر مصر منهم، بيد أن للصليبيين أطماع أخرى، وأهداف طالما حرصوا على تحقيقها منذ زمن بعيد، ألا وهي احتلال بيت المقدس من أيدي المسلمين، لقد وقّع الملك الكامل معاهدة مع الصليبيين وكان من ضمن شروطها التنازل عن القدس لهم.، فكيف يتنازل هذا الملك عن ملك لا يملكه وبلد لا يحكمه، حيث أن القدس كانت من أعمال أخيه الملك الأفضل عيسى ملك الشام، إن هذه المفارقة عجيبة غريبة، ولربما نعللها.

فالعرب والمسلمون لا يمكن أن يتنازلوا عن القدس أو الأماكن الإسلامية في بيت المقدس مهما كلفهم ذلك من ثمن، ودفعوا من أجل تحريرها من أرواح، فالقدس جزء من العقيدة الإسلامية ،فأي تفريط بها يعتبر تفريطاً بالعقيدة، وهذا ما لا يوافق أن يتحمله أي مسلم في مشارق الأرض ومغاربها، لأن القدس جزء من لباب العقيدة الإسلامية.

قدم الفرنجة في العصور الوسطى غزاة لبيت المقدس وأكناف بيت المقدس، علّهم يجدون لهم مكاناً يلجأون إليه أو يستظلون بظله، بيد أن جميع محاولاتهم قد باءت بالفشل الذر يع، حتى في أيام حكمهم وغطرستهم، لم تهدأ لهم أحوال، ولم يستقر لهم قرار، وأن الحرب والمناوشات لم تتوقف على الإطلاق بين أهل البلاد الأصليين والغزاة المحتلين.

لقد كان شعارهم تحرير قبر السيد المسيح من أيدي المسلمين في فلسطين واستطاعوا أن يبنوا لهم كيانا مؤقتا، بيد أن هذا الكيان لم يدم وأخيراً اندحروا، وتحطمت أحلامهم على أسوار بيت المقدس، وعادت لأصحابها الشرعيين.

جرت عدة محاولات من هذه القوة الغاشمة لإعادة القدس لأحضانهم، بيد أنها كانت فترات بسيطة، وأعادها أصحابها الشرعيون إلى أحضان حاضرة العالم الإسلامي.

- **المرحلة الأولى**: كانت الحروب الصليبية التي بدأت عام 1099 م واستمرت لعام 1187 م والتي استغرقت ثمانية وثمانين عاماً، وتم تحريرها على يدي القلائد الفذ صلاح الدين الأيوبي.
- **المرحلة الثانية**: فقد كانت في عام 1229 م واستغرق احتلالها لمدة عشر سنوات أي لغاية عام 1239م إثر الاتفاقية الموقعة بين الملك الكامل والملك فردريك.
- **المرحلة الثالثة**: فقد كانت في عام 1243 م حيث اتفق الناصر داود صاحب الكرك والقدس مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق على محاربة صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، ووافق الفرنجة على أن يكونوا عوناً لهم على الملك الصالح، ووعداهم أن يسلما إليهم القدس وطبريا وعسقلان وتسلموها وعمّروا قلعتي طبريا وعسقلان، وتمكن الفرنجة من الصخرة وجلسوا فوقها يحتسون الخمر، وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى، [1] وكان ذلك سنة 641 هـ وفق 1243 م.

نهاية حكم الأيوبيين

بدأ حكم الأيوبيين وتألق نجمهم في عهد صلاح الدين الأيوبي، وظلت القدس معظم أيامها تحت حكم الأيوبيين، ما عدا فترتي المدة الأولى التي تمت في عهد الملك الكامل، والملك فرد ريك والتي استمرت لمدة عشر سنوات كما أسلفنا، والفترة الثانية في

(1) المقريزي، مصدر سابق، ج2 ص 315 .

عهد الأميرين الأيوبيين بالاتفاق مع الفرنجة، وأخيراً أعد الفرنجة الحملة الصليبية السابعة، بقيادة لويس التاسع عام 647 هـ وفق 1249 م حيث كانت هذه الحملة معدة لاحتلال القدس، وقد دارت المعارك الشرسة بين جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب وبين جند هذه الحملة وفي نفس السنة توفي الملك نجم الدين وكانت القدس تحت إمرته، وتولى القيادة بعده ولده الملك المعظم غياث الدين توران شاه.أتم توران شاه معركة المنصورة التي دارت بين الفرنجة وبين جنده، وقتل من الفرنجة نحو 30 ألفا.وأسر ملكهم لويس التاسع وكانت هذه الواقعة عام 1250م فهي من الوقائع الفاصلة بين المسلمين والفرنجة.

على الرغم من التفوق العسكري، الذي أبداه هذا الملك الأيوبي، وما تمتع بيه من جرأة وحسن قيادة، وكانت معركته مع الفرنجة معركة فاصلة في تاريخ الحروب الصليبية، بيد أنه لم يحسن ألإدارة الداخلية لملكه، وأعطى المناصب لغير أهلها، وانهمك في الفساد وانحاز عن جادة الصواب والإعداد، فنفرت منه قلوب الناس وتآمروا عليه وقتلوه عام 648 هـ وفق 1250 م وبقتله انقرضت دولة بني أيوب بمصر.

طويت بمقتل هذا الملك الأيوبي صفحة خالدة سطرها الأيوبيون في تاريخ هذه الأمة، وقد كانت معنونة بالبطل صلاح الدين الذين خلد اسمه وبرز فعله على مر العصور، وكانت مدة حكمهم للقدس اثنتين وخمسين سنة وكانت على النحو التالي:

من سنة 1187 م – 1229 م 42 سنة

من سنة 1239م – 1243 م 4 سنوات

من سنة 1244م – 1250 م 6 سنوات

انتهى حكم الأيوبيين لمدينة القدس على النحو الذي ذكر سابقاً، فدخلت أخيراً في حوزة المماليك، لو لم يكن للأيوبيين أعمال تذكر لكفاهم فخراً تحرير القدس من ربقة الفرنجة لمرات ثلاث وتسليمها لقادة آخرين، فالتاريخ يذكر هؤلاء القوم، وكلما ذكرهم فإن القدس ترتبط بهم، وهم يرتبطون بها ولا يمكن أن تفارق وجدانهم، فقد حرروها بالدماء الزكية ووحدوا الأمة شرقا وغربا وتركوا في هذه الديار آثاراً خالدة تحكي قصة حياتهم ووجودهم فيها.